قصيدتان

محمد الخالدي

I ـ مساء بغدادي»*

إلى رعد عبد القادر

هيّاتُ مجلسنا وقلتُ لرِفْقتي انتظروا قليلا
فأنا دعوتُ أحبَّتي
ولرُبّما التَحقوا بنا عمّا قليلِ
لا تقْلَقوا إنّ الطريقَ طويلةٌ:
سُجُفٌ من الصحراءِ تفصلُ بيننا
ومغاورٌ تمتدُّ مثل الشَّوقِ في الليلِ الطويلِ
لا تقلقوا... إني أراهم قادمينا
فلْتُوسعوا لأحبَّتي
ولْتفرُشوا البُسُطَ الأنيقةَ
ولْترشُّوا الياسمينا.
عهدي بهم سُودَ ـ الغدائرِ ـ قيل شابوا من أسىً
لا تسْألوهم كيف شابوا واذكروا العهدَ الجميلا
ـ عفواً لقد وَصَلوا... هَلا
يا مرحباً... يا مرحباً ها ركبُكم حلاّ
جوزوا فهذي الدارُ دارُكُمو
ألسْنا خُلّةً لكُمو وأهْلا؟
شابت غدائرُكُم وهذا مَفْرِقي شابا
ـ كنّا إلى عهدٍ شبابا
ـ ولّى الشبابُ ولن يعودَ، فهات عجِّلْ بالشرابِ...
بتْنا نَعُبُّ ونستعيدُ فنستَزيدُ وإذْ بنا
في الشاطئ المعمورِ ضجَّ بكلِّ مليحةٍ فرعاءَ
ترفُل في القشيبِ من الثيابِ
مرّتْ بنا «الخاتونُ» مسرعةً
ـ تُرى ما بالُها؟ كانتْ إذا مرّتْ بنا
ألقتْ تحيّتَها على عجلٍ وحثّتْ خطوَها
كي لا يظنَّ العاذلون بها الظّنونا.
مرّتْ ومرّ العاشقونا
شرد المقامُ فأشْفقَتْ نارنْجةٌ وحَنَتْ علينا
وهما المساءُ مباهجاً فازّينتْ بغدادُ وانْصاحتْ مغانيها
قلنا المدينةُ نوّرتْ هيّا بنا لنضيعَ فيها
هذي الشوارعُ تزْدهي بالفاتنات
وهذه حاناتُها اصْطغَبتْ هلُمَّ بنا لعلّ الشَّرْبَ جاؤوا...
وانْزَويْنا
في حانة
دارتْ علينا الكأسُ مترَعةً
فلمّا تَعتعتْنا الخمْرُ غنّانا مغنّينا:
«فتَنُ الجمالِ وثورةُ الأقداحِ
صَبَغَتْ أساطيرَ الهوى بجراحي...
وُلد الهوى والخمرُ ليلةَ مولدي
وسيُحملان معي على ألواحي»**
يا ذابحَ العنقودِ مهلاً إنّني ظَمِئٌ
فهل سَقَيْتَني خمراً وهل ذكّرتَني
بأحبّتي ما بين منْتَجَعٍ وراجِ؟..
.....
.....
لأحبّةٍ عرّتْني الأيامُ منهم عُنْوةً
يهفو الفؤادُ
لأحبةٍ ينْأون عنّي مثلما تنْأى البلادُ
لأحبّتي هذا المدادُ
ولشَقْوتي هذا السُّهادُ
ولنا جميعاً بعضُ سلوى
إنْ نَبا عنّا الرّقادُ.

---

* ـ عنوان مقطوعة موسيقية لعازف العود العراقي: نصير شمّا.

** ـ الشعر للأخطل الصغير. وقد اعتاد قراءُ المقام في العراق إنشادَ هذيْن البيتيْن كمقدمةٍ لوصلاتهم الغنائية.

II ـ ملكُ الطوّافين

إلى حسب الشيخ جعفر

يَغْشَى الحانات وئيداً في منتصف الليلِ
ـ مَنَ أنْتَ؟ وما هذي الأسمالُ؟ أجئتَ من الغيبِ؟
ـ بلى جئتُ من الغيب وبي ظمأٌ لا يهدأُ.
جيئوني بالخمر سريعاً
فأنا الصحراءُ ترامتْ عطشاً
ورمالاً من ضَرَمٍ تمتَدُ وتمتدُّ
فمن يَرْوي ظمأَ الصحراءِ ومَنْ يُطفئُ أوّارَ البيدِ
تلظَّتْ من شغَبٍ...؟
ـ مَنْ صحبُكَ؟
ـ صوفيّون أضاعوا دَرْبَهُمُو من فرطِ السّكْرِ
وجوّابُو آفاقٍ ما وصلوا أبداً...
جيئوني، بالخمر وبالحيَّام يُغنّيني
جيئوني بابنِ الفارضِ يَسْقيني
وبمحيي الدّين أشمُّ عباءتَهُ، فأنا اشتقتُ إليهمْ،
هل مرّتْ بالحيِّ قوافلُهم؟
ـ ماذا يهْذرُ هذا المخمورُ؟
ـ لقد كنّا أمس معاً فشربْنا حتى الصبحِ
ولكني لا أذكرُ أينَ: أفي الشام شربْنا
أم في البصرة؟
أم في أشبيليَّةَ عند الشيخ الأكبر...
لا أدري. ثم تفرّقْنا وضربْنا موعدَنا
في هذي الخمّارة ثم دعاهمْ فرداً فرداً:
جاء الحيّامُ وئيداً يحضُنُ كوزاً من خزفٍ
ويردّد أشعاراً تَنْدى حتى تورقَ في شفتيْهِ
جناناً خُضراً. ودعا
فأطلَّ ابنُ الفارضِ هالةَ نورٍ
يتْبَعُه الفقراءُ وأهلُ الجَذْبةِ
من صوفيّين فَنَوْا
ودراويشَ رأوا فانْجذَبوا
وأشار فهيلتْ أكداسٌ من تبرٍ
وترامى مَرْجٌ من ذهبٍ ـ إبْريزٍ
فمشى بينهما جبلاً من بلّورٍ...
ثمّ دعا فإذا الشيخُ الأكبر يُقبل كالشّمسِ
فتُزْوَى الأرضُ لهُ،
يُدْخلُ أقْصاها في أدناها
ويقول لهم زُويتْ لكمو الأرضُ فطوفوا فيها
وانْتهبوا ما طاب لكم من نُعمى ولذائذَ،
ذي خمّاراتُ الأنْسِ فدونَكمو الخمرَ
وذي الجنّةُ تدعوكم فأقيموا فيها ما شئتمْ...
ـ أولاءِ رفاقي وصلوا
فأعدُّوا للطوّافين موائدَهم
وائْتُوهم بالخمرِ سريعاً إنّ مواجدَهمْ
ضَرَمٌ من نارٍ ومواعدَهمْ
في أقصى الأرضِ وهم ما برِحوا
يستَعْجلون مقاصدَهم...
يخرجُ للشارعِ مخموراً
لا تَسَعُ الأرضُ خطاهُ
ولا يدري هل كان ببغدادَ يعبُّ الخمرةَ
أم في إشبيليّةَ يمشي بين جنائنِها
ويعُدُّ مفاتنَها.
زُويتْ كلُّ الأرضِ له فتخطّاها
فرآها
قُرصاً احمرَ من لهبٍ
فدحاها
وأقام مضاربَهُ ودعا بالخمرِ فجاءتْهُ
وبالطوّافين فجاؤوا
شربُوا ليلتَها
شربوا... شربوا...
حتى ضاءَ الفجرُ وضاؤوا.

تونس